دراسات الأدب المعاصر، السنة السادسة، خریف ۱۳۹۳، العدد الثالث والعشرون: صص۹۱- ۱۰۷

فکرة الموت وألوانه فی شعر سمیح القاسم

حامد صدقی*
رسول زارع**

تاریخ الوصول: ۹۲/۱۰/۱۵
تاریخ القبول: ۹۳/۱/۱۸

الملخّص

الموت من المحاور الرئیسة عند *سمیح القاسم* إذ تحتفل أشعاره بقضیّة الموت. یهدف البحث الی دراسة إیدئولوجیا الشاعر فی رؤیته نحو الموت، کما حاول أن یبیّن دوافعه التی تشکّلت فی شعره. لأنَّ رؤیته الجمالیة نحو الموت تقوّی روح المقاومة عند شعبه حتّی تغیّرَ لون الموت فی عقائدهم فیعتبر الموت عنده التزاماً فی الأبعاد السیاسیة والوطنیّة والقومیّة والذاتیة. اعتمد البحث المهنج الوصفی والتحلیلی بالترکیز علی دواوینه؛ إتّضح لنا بعد دراسة أبعاد الموت أنّه وقف عند هذه المسألة علی مستویین: ذاتی وجماعی، فدرسناهما فی القضایا السیاسیة والقومیة والوطنیة، وکشفنا عن رؤیته الجمالیة فی معجم الموت ودلالاته فی التعبیر عن واقع الاحتلال.

الکلمات الدلیلیة: الموت، دلالة الموت، سمیح القاسم، الشعر العربی المعاصر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

* عضو هیئة التدریس بجامعة الخوارزمی(استاذ). Sedghi@khu.ac.ir
** طالب الدکتوراه. Zare.3r@gmail.com
الکاتب المسؤول: رسول زارع

المقدمة

كان لحتميّة الموت اثر على رد فعل الشعراء حيث اتجهوا إلى ذكر الأمم السابقة والرجال العظماء السابقين الذين طواهم الردى وهدف الشعراء فى ذلک العبرة والتقليل من أهميّة الحياة، فالموت كان له أثر فى نفسيّة الشعراء بشكلٍ عامٍ.

وبرزت موضوعة الموت فى الشعر المعاصر لتحيط بنظرة الشاعر إلى هذه الإشكالية القديمة المتجددة، والتى ستظل مادامت الحياة قائمة على هذه الكون. وتفاوتت نظرة الشعراء إلى الموت، بحيث نجد هذا التفاوت واضحاً للعيان عند شاعر وآخر، بل عند الشاعر نفسه فى القصيدة الواحدة أحياناً، أو المجموعة الشعرية الواحدة، أو فى مجموعات متعددة أصدرها الشاعر منذ بداية عطائه الشعرى، إذ تغدو الموضوعة أكثر بروزاً بأشكالها وتفسيراتها المختلفة كلما تقدّم الشاعر بالعمر، أو أوغل فى التجربة الحياتية، أو اطّلع على نظرة أدباء العالم وفلاسفته إليه.

فمرّة نجد الشاعر يؤمن إيماناً كلياً ومطلقاً بحدوث الموت مستسلماً للقضاء والقدر، ومرّة ثانية يرفضه رفضاً تاماً ويتحداه، ومرّة ثالثة يتحايل عليه، ورابعة يهرب منه كذلک فهو يطلبه بل ويستعجله، بينما نلتمس عنده اختلاق الذرائع والأسباب والمسوغات ليهرب منه.

وهناک عددٌ من الدراسات إهتمت بالموت فى اشعار الشعراء منها دراسة *عبدالسلام المساوى* المسمّاة بـ«جماليات الموت فى شعر محمود درويش»؛ ودراسة اخرى *للدكتور فوز سهيل نزال* المسمّاة بـ«تجليات الموت فى شعر نزار قبّانى»، ومنها دراسة «تجليات الموت فى شعر المتنبّى» للباحثة *بهاء بن نوار*.

وفيما عدا ذلک لم نعثر على دراسة كاملة فى الموضوع ذاته (فكرة الموت وألوانه فى شعر سميح القاسم)، وحيث يحتفل ديوان *سميح القاسم* بالموت، وتمحورت أشعاره حول الموت كان لكلّ محور نكهته الدلالية الخاصة وإن تداخلت هذه الدلالات وتناقضت أحيانا. فقد تحدّت عن الموت من خلال المضامين الوطنية والسياسية وأضفى عليه دلالات الصمود والحماسة والذوبان فى سبيل الوطن واسترجاع أرضه المسلوبة وأحيانا دلّ بالموت فى معنى الاستكانة والخنوع والسكون.

۱) المنظور الجماعی

الموت من خلال الفكرة الوطنية والسياسية

لقد كانت القضايا الوطنية برمّتها قد ألقت بظلالها على الشاعر وحملته عبء مقاومة الاحتلال والذود عن وجود شعبه، وتصوير ما حلّ به والنهوض من قلب المأساة والصمود فی وجه الواقع الجديد. فقد استلهم *القاسم* هذا الواقع الذی شكّل عصب القصيدة من حيث مضامينها فعبّر عن الهم الفلسطينی إزاء قضية الوطن السليب والشعب المتمرّد «إذ آمن الشاعر بقدرة الشعر على أداء وظيفته الاجتماعيّة والسياسيّة المتمثّلة فی التوعية والتبصير والتغيير من خلال تعميم التجارب الذاتيّة، واضاءة العالم الداخلی للمتلقی وشحنه بالتمرّد والغضب فی ظل النفی والظلم المستمر الذی يمارسه الاحتلال»(بزراوی،۲۰۰۸: ۱۰۸).

عبر الشعراء فی الاتجاه الوطنی عن هويتهم الفلسطينية، وعن مشاعرهم إزاء وطنهم، وهذا الموقف لن ينفک عن الموقف القومی، والإنسانی أبداً، ويحتوی عليهما أيضاً: «وذلک أن التشبث بالأرض هو حفاظ على وجود إنسانی يظل مرتبطاً مهما تعددت صور النظر إليه، بوجود قومی، هو المعنى الذی يشير إليه التشبث بالأرض، وهذا الإفضاء مما هو وطنی إلى ما هو قومی أعطى الشاعر الفلسطينی هوية واضحة فی تناول الهموم الأساسية بصفتها مصيره الذی يواجهه فی حياته تحت الاحتلال، وسلامه الذی يدافع به عن هذا المصير»(كامبل اليسوعی، ۱۹۶۶: ۵۱۷).

شكلت علاقة الشاعر بالوطن جوهر قصائده من حيث مضامينها فقد إلتصق بالوطن إلى حد الإنصهار التام، وإنعكس ذلک فی شعره بشكلٍ مباشرٍ. «إذ كان شعره يتّسم بالغضب والعنف ويواجه التحديات الكبيرة منذ قصائده، التی اتّسمت بالطابع القومی الى القصائد التی إخترقت دائر القوميّة للتعبير عن الجماهير الكادحة المسحوقة»(الاسطة، د.ت: ۱۳۴)؛ «فعلاقته بالوطن تصل إلى درجة التقديس، فالوطن وجسده وروحه ومهده وضريحه والوطن هو دم القتلى»(بزراوی، ۲۰۰۸: ۱۱۸). حيث يقول:

وطنی دمُ القتلى ورجعُ هُتافِهم وطنی وجذرٌ راسخٌ ورجالُ

(القاسم، ۱۹۷۸،ج ۱: ۴۹)

ويمكن تتبُّع المسار السياسى *لسميح القاسم* عبر رصد الأحداث التى أثارها شاعرنا فى قصائده النابضة بالحس الوطنى، ولقد أحسّ الشاعر بالموت القادم الذى يهدّد حياته وحياة شعبه حين لم تكن تتوافر لديهم القدرة على الوقوف على وجهه وهذا يقتضى اتقان النضال لأنّ النقيض لا يعنى سوى الموت حيث يقول:

أُحِسُّ أنّنا نموتُ
لأنّنا لانُتقِنُ النضالَ

(القاسم، ١٩٦٤: ٢١)

فاتقان النضال هى الآلية التى تحول دون هذا النوع من الموت الذى يعنى الاستسلام والتلاشى. لقد كان النضال هاجساً يخامر الشاعر فى لحظات الاحساس بالموت البطىء المتمثل بسياسة الاحتلال وممارسته، فهو يقضم اطراف الوجود الفلسطينى التى لم يبق منها سوى الاحقاد والحزن المسمم(بزراوى، ٢٠٠٨: ١٢٣). ويقول:

لم يُبقِ ما نُعطى سوى الاحقادِ والحزنِ المسممِ
فخُذُوا
خُذوا منّا نصيبَ اللهِ والايتامِ والجرحِ المضرمِ

(القاسم، ١٩٦٤: ١٦)

لقد تحوّل الاحساس بالموت إلى حقد كما تحوّلت الدموع إلى الحزن المسمم.

ويكشف الشاعر وجه الإحتلال القبيح الذى يتمثّل فى محاربة الفلسطينيين فى لقمة عيشهم، وتضييق الخناق عليهم وبخاصة على الوطنيين منهم كى يضيقوا بهذه الحياة ذرعاً، فالشيوعيون لا يملكون ثمن الموت فى ظلّ دولة الاحتلال يقول:

لكنّى لا اتمنّى الموتَ
التابوتَ العاديَّ
أغلى من كلِّ الداخلِ الشهريِّ
للمحترفِ الحزبيِّ

(القاسم، ١٩٧٩، ج٢: ٤٨ـ٤٩)

وإنّ تشبّث الشاعر بالثورة الاشتراكية ودفاعه عنها يحمل دلالة سياسيّة، وهى أنّ الاحتلال وليد القوى الاستعمارية التى تقوم على احتلال أرض الغير ونهب خيراتها وقهر

شعوبها وتدمير مقومات وجودها؛ ولهذا نراه يقف إلى جانب موقع الاشتراكيّة الاول الاتحاد السوفييتی ويدافع عنه أمام أعدائه فهو قلعة الأحياء وهو وطن المغاوير الـذين هـوت علـى أيديهم قلعة النازية الهتلرية(بزراوی، ۲۰۰۸: ۱۴۱). يقول:

يـا شـاتماً وطـنَ المغـاويرِ الأُلـى اهووا بليلِ الرايخِ فی شـفقِ الـدمِ
جـرحُ الملايـينِ الذبيحـةِ صـارخٌ يا قلعةَ الاحـرارِ دومـی واسـلمی

(القاسم، ۱۹۷۸، ج۱ :۳۴)

وفی هذه القصيدة يتحدّث عن معجم الموت فی زمن الحرب والاحـتلال، هـذا المـوت الاجبارى الذى يقهر الشاعر قهراً يفوق قهر الموت الطبيعی الذى يمرّ بمحطته كلّ انسـان، ولذا يستخدم مفردات خاصةً بهذا الموت كالدم والجرح والذبح.

الموت فی ثنايا الفكرة القومية

إنّ الفكرة القوميّة من حيث وجود الشعب العربی بهويتـه وكيانـه ومحدداتـه وروابطـه وشخصيته التاريخيّة، ضمن معطيات الزمان والمكان من قيم وأعـراف وتقاليـد وخصـائص ثقافيّة ونفسيّة مشتركة، وهی عوامل تشكل بجـدليتها، الإسـتمراريّة والتفاعـل الحضـارى وصيرورة الواقع القومی(خليل، ۲۰۰۴: ۳۲).

إنّ الحركة الشعرية فی فلسطين هی جزء مـن الحركـة الشـعرية فـی الـوطن العربـی، وانتماء الشاعر الفلسطينی لفلسطينيته هو جزء من انتمائه لعروبتـه، يتفاعـل مـع أحـداث وطنه العربی السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية(ابوشـاور، ۲۰۰۴: ۵۳) كقصـيدة «عروس النيل»(أغانی الدروب: ۱۱۹-۱۲۱) حيث يقول:

فَاستَيقَظُوا يَا أيُّها النيامُ
ولنَبتنِ السدودَ قبلَ دهمةِ الزلزال
تَنبَّهُوا
بِهذه الجُدران
تَنزلُ فينا مِن جَديدٍ نكبةُ الطوفان
يَا وَيلكُم
أحلَى صَبايا قَريتی قُربان

وَنَحنُ نَستَطِيع أن نبتنىَ السدود
مِن قَبل أن يُدهمَنا الطوفان

(القاسم، ١٩٨٧: ١٢١-١١٩)

تاثّر الشاعر بالفكر القومى الناصرى فى بدايات حياته الشعريّة، إذ تزامنت إهتماماته السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة والادبيّة مع ثورة ١٩٥٢ المصريّة، وكان لهذه الثورة تاثيرها الكبير على تنامى الشعور القومى لديه وتعميق وعيه . حيث يقول :«إنّ قوة الجذب الهائلة بالنسبة لى آنذاک تركزت يشكل يكاد يكون دينيّاً فى الظاهرة العملاقة، التى أوقفت إلانسان العربى على ساقين قويتين فوق أرض صلبة فى تلک المرحلة المفعمة بالحماس الحلم أعنى ظاهرة *جمال عبدالناصر*»(القاسم، ١٩٩١، ۶: ٣۴۵).

فقد راى الشاعر أنّ التشبث بقوميته العربية يحقّق القومية التى تتعرض للتهذيب والتهويد، ويمكّنه من الوقوف على ساقيه القويتين فى وجه الغزاة، ويحقّق له التوازن المطلوب فى أرض الصراع. لذا يلاحظ أنّه يصدر عن روح عربيّة أصيلة،«ويتفرد بسمات الشاعر القومى الذى قلّ أن نجد له نظيراً فى هذا المضمار»(الخطيب، ١٩۶٨: ۵٣).

فقد كان *سميح القاسم* أول شاعر عربى يغنّى لثورة "الذئاب الحمر" فى ردفان غداة تفجرها، مدركاً بعدها العميق ومعناها(كنفانى، ١٩۶۶، ج۴: ٢٩٠-٢٨٩).

وبقى الإنتماء للعروبة أرضاً ولغة وهوية سلاح الشعراء المقاومين فى الأرض المحتلّة؛ وقد تنامى الشعور القومى فى شعره معبّراً عن نفسه فى الإشادة بالإنجازات العربية، والتعبير عن الهموم العربية، والتعريض فى ذات الوقت بالانظمة العربية التى وقفت ضد مصالح شعوبها كما وقفت موقفاً سلبيّاً من قضيّة الشعب الفلسطينى. وهو يدعو صراحة إلى الوحدة العربية عندما يصوّر أحاسيسه إزاء واقع التجزئة التى يعانى منها الوطن العربى(بزراوى، ٢٠٠٨: ١٢٩)، فهو أشلاء ممزقة ودماء مسفوحة دفعت الشاعر إلى الدعوة لجمع هذه الأشلاء فى قصيدة «أريد أن أذهب إلى عملى» يقول:

من يجمعُ أشلائى
من يُرجِعُ للأشلاء دمى المسفوحَ؟
من يجمعُ أشلائى
من ينفخ فيها الروحَ؟

قلبی المصریُّ
لن ينبضَ وحده
وجهی السوریُّ
لن يشرقَ وحده
ساقیّ السودانیّةُ
لن تبلغ ما لم تسعفها ساقیّ اللبنانیّةُ

(القاسم، ۱۹۷۱: ۱۰۲-۱۰۳)

فهو عندما يهاجمهم يعبّر عمّا ألمّ به من الألم وما يعتريه من الغضب على ما آلت إليه أوضاع الوطن العربی الذی تكالبت عليه القوی الاستعماريّة، ونهبت خيراته لخدمة مصالحها المتمثلة فی دعم الاحتلال فی فلسطين(بزراوی، ۲۰۰۸: ۱۳۵).

وإن استخداماته غير المباشرة فی اظهار قوميته كانت ناجحة إلی حد بعيد فقد استطاع أن يرسم صورة حادة الألوان واضحة المعانی لشخصيته القومية، وأكثر ما نلاحظ فی الكشف عن معجم الموت فی بيان فكرته القومية هی الرؤية الجمالية فی سياق الدلالة والفنی معاً، أی إنّه أظهر لنا إثبات شخصيته القومية فی إطار التضاد فی الفاظ(تحفر وينهش) مع (باقٍ- لم أبدّل) حيث يقول:

عبثاً تحفر الرياح جبينی
عبثاً ينهشُ اللهيب نخاعی
هذه نبرتی وهذی ذراعی
وثيابی.. واحرفی.. ومتاعی
أنا باق.. باق أنا حيث أمضی
لم أبدل ملامحی بقناعَ

(القاسم، ۱۹۸۷: ۴۹۶-۴۹۵)

إنّه هنا ينكر الموت الطبيعی من خلال معجم الموت(عبثاً تحفر- عبثاً ينهش) وأكّد علی بقاء شخصيته القوميّة من خلال (أنا باقٍ..باقٍ – لم أبدل)، رغم سيطرة المؤثرات الهاجمة علی هويّته. لكن إحساسه القومی أقوی منها فتشبّث علی عناصر شخصيته.

وفی قصیدة (لن) ذات العنوان الرافض، تتجلّی رؤیة الشاعر نحو الفکرة القومیة من خلال إنکار الموت فی أسلوب مرکب من المباشرة وغیر المباشرة(جذرنا-دمنا)، واستخدام القسم والإنکار یعطی انطباعاً جمیلاً بکلامه:

قسماً.. جذرنا لن یموتا!

قسماً.. دمّنا لن یُطلاّ!!

(القاسم، ١٩٨٧: ٤٩٨)

الموت الاجتماعی؛ الاستکانة والخنوع والاحساس بالمرارة

إنّ أصعب ما إبتلی به بعض الناس من الآفات الاجتماعیّة هو الاستکانة والخنوع، والقبول بالأمر الواقع وضعف الروح الوطنیة وإصابتها بالوهن والتشاؤم، ففی ظلّ هذا المناخ لا یمکن تحقیق النجاح أو النصر علی الأعداء. فإنّ *سمیح القاسم* یصوب سیاط نقده علی الخانعین والمتبطین الذین یقفون موقفاً سلبیاً لما یدور حولهم ولا یحرکون ساکناً فهم کالقطیع یساق للذبح راضیاً خانعاً لا یقاوم(سلیمان، ٢٠٠٧: ٧٧)؛ حیث یقول:

هنا انتَ ...

حولَک هذا الجدارُ الکثیفُ

هذا الهمودُ الکفیفُ وهذا الخمودُ المخیفُ

وحولَ جنونِک تقعُ الملایینُ حولَ الملایینِ

فوقَ الملایینِ ... تحتَ الملایینِ... تمضی إلی الذبحِ ... قطعانُ ماعزٍ

وتُولدُ للذبح قطعانُ ماعزٍ

(القاسم، ٢٠٠٥: ٣٨)

والشاعر هنا یرسم صور متعددة المشاهد والایحاءات، إنّها صُور نابعةٌ عن عمق المأساة والحسرة التی یتجرعها الشاعر، وهو یری حوله هذا الصمت والقبول بالخنوع والذل فیستدعی هذه الصورة المتتابعة(الجدار الکثیف، الهمد الکفیف والخمود المخیف) ویقول:

هرمت ظهیرتُنا ...

وأدرکنا النعاسَ بلا ظلالٍ

نمنا ... وفاجأنا صیاحَ الدیکِ فی الحاسوبِ ...

أو كلنا مراجعنا لإينترنتٍ...
كان أمامَنا نفقٌ .. وضوءٌ فی نهايته يموتُ ...
وننتهی نفقاً بلا ضوءِ
يقودُ إلی احتمالِ

(القاسم، ٢٠٠٥: ٣٨)

الاتجاه الانسانی فی الموت

ولو تفحصنا ديوان *سميح القاسم* لوجدناه يمتلئ بمعانی المواقف الإنسانية، التی تتم عن نظرة الشاعر ورؤيته الجديدة للعلاقات التی تربط العالم ببعضه. وتدخل هذه القضية ضمن ملمح من ملامح هذا الشعر هذا الملمح يمكن أن يدرج تحت قضية يسارية الأدب الفلسطينی اليسارية التی نفهمها نحن، أی الانطلاق من الوطن إلی القومية إلی الإنسانية.

بإخضاع الشعر الفلسطينیّ الحديث لمقاييس الانسانيّة نجد أنّ جزءً كبيراً منه ينضوی تحتَ عباءتها. والشعراء الفلسطينيّون «إعتبروا قضيّتهم هی قضيّة الانسان فی كلّ مكانٍ»(ابوشاور، ٢٠٠٤: ٢٤٢).

يقول *سميح القاسم* فی قصيدة «بطاقات إلی ميادين المعركة» إلی *بول روبسون* مبينا نضاله فی سبيل التغيير والحرية:

مِن أقصَی أطرافِ الدُّنيا
يَنهلُ غناؤُک فی بيتی
وَيُرفرَفُ فی قلبی
عُصفوراً..أسمر.. منفيا
يا فَاضحَ جَور الإنسانِ علی الإنسان
مِن أقصَی أطرافِ الدُّنيا
«باللهِ خُذُوا أمّی للبيت»
«كَی لا تشهدَ مَوتی!»

(القاسم، ١٩٨٧: ٣٢٩)

اللون الاخضر: الموت الأسمى فى معنى الشهادة والدفاع عن الوطن

إنّ الشهيد والشهادة من الكلمات المرادفة للموت، ونرى كلمة الشهيد والشهادة بارزة فى ديوان شعراء المقاومة وإنّ *سميح القاسم* هو شاعر المقاومة الشهير الذى نظم قصائد مختلفة فى الدفاع عن وطنه فلسطين المغتصبة، ومقارعة الغاصبين لها(طهرانى، ١٩٩٢: ٨٨)؛ فله مشاهد شعرية رائعة عن الشهيد والشهادة وإنّ جبهة السفاح لا تعدلُ جبهة الشهداء بل إنّ نعل الشهداء أعزّ منها وأكرم؛ بينما هو يذكّر بأبدع صورة أنّ دم الشهيد رسالة نبويّة فلنصلّ ولنسلّم على روحه الرفيعة (آفاق الحضارة الإسلاميّة، العدد الاوّل: ٩٨) حيث يقول:

وَلكَم وقفنا بالقبور وإنّنا نستلهمُ الشهداءَ إذ نَستَلهَمُ
ياجبهةَ السفاحِ لاتتشامخى نعلُ الشهيد أعزّ منكِ وأكرمُ
ودمُ الشهيد رسالةٌ نبويّة صَلّوا على روح الشهيد وسلّموا

(القاسم، ١٩٩٣، ج٢: ٤١٥)

وفى قصيدة أخرى يتمنى أن يمتلك قدرة الشهيد:

أبى الغالى
تطلّع مرة اخرى
لِتُبصر مرةً أخرى
وَهَبنى قدرة الشهيد

(القاسم، ١٩٩٣: ٤٩-٤١٥-٤١٧)

٢.المنظور الذاتي

تشخيص الموت: خطابه فى المعنى الواقعى

نهاية كل شىء المصير المحتوم الذى لا مفرّ منه وهو الذى قهر الله به العباد، ولا ينجو منه أحد ولا حتّى الانبياء:

﴿أينماتكونوايدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيّدة﴾(النساء/ ٧٨)

هذا هو الموت الغائب الثقيل الذی ينتظره كلّ فرد، فقد تناوله الشعراء فی قصائدهم مبينين حقيقة هذه الحياة الغائبة. «يستطيع الشاعر فی نطاق الإطار الاجتماعی أن يتامل موضوعاتٍ كالميلاد والموت وضالة الانسان بالنسبة للوجود»(سنبدر، ٢٠٠١: ۴۵).

ويبيّن *سميح القاسم* حقيقة الموت الذی كتب على كلّ شیء وأنّه ملازم للحياة لايفرّ منه أحد، ويصوّر الشاعر الموت انساناً يحدثه ويسأله عن حقيقته وعن سبب وجوده. حيث يقول:

يا موتُ هل كنتَ من أجلنا أم وُلِدنا لِأجلک
يا موتُ ...نطفتنا أنتَ أم أنّنا بعضُ أهلِکَ
ويا موتُ جرِّب نجاعتَنا فی الحياةِ قليلاً
إذا أنتَ أمهلتنا سنكرسُ لاسمکَ كلَّ الجوارحِ
ونكتبُ باسمکَ أحلى المدائحِ
تمهَّل ... لعلّ الحياة قليلاً لأجلِکَ أرقى وأنقى وأجمل
تمهّل... تمهّل

(القاسم، ٢٠٠٥: ۹۵)

مفارقة التحول فی التوبة

إنّ قصيدة «التوبة» تؤكّد التغيّر الفكری الذی ألمّ بالشاعر قبل عام ١٩٩٠ فيما كتبه الشاعر من قصائد مختلفة فی ديوانه «التوبة» تشی بخلافاته مع الشيوعيين، ومن أبرزها قصيدة التوبة(القاسم، ٢٠٠۴، ج٣: ٢٣۶). القصيدة التی أعلن فيها عودته من الموت الذی أصبح رمزاً لمرحلة سابقة تحلل الشاعر منها وهی مرحلة انتمائه الحزبی، وهی تصوّر القطيعة التامة مع الحزب الشيوعی فهی تشكل تصوّراً جديداً للحياة والموت لم يعهده القارئ فی شعره من قبل حيث يقول:

ها انذا بعدَ موتٍ كبيرٍ
أعودُ اليکَ قليلاً
ثقيلَ الخطا عاقلاً مستحيلاً
ها انذا بعدَ موتی اعودُ

على جبهتی وصمتی
والمشیب الذی وخط الصدغ کفارتی
بعدَ موتٍ طویلٍ أعودُ

(القاسم، ٢٠٠٤، ج٣: ٢٣٦)

لقد تغيّرت رؤية الشاعر وموقفه من الموت الذی تضمنته دواوينه السابقة؛ فقد كان الموت مرتبطاً بما يتعرض له شعبه تحت الاحتلال وما ترسخ فی ذهنه عبر السنين التی شهد مآسی شعبه المتكرّرة على أيدی المحتلين. كان هذا النوع من الموت غير الطبيعی يعدّ أساساً لتشكيل موقف الشاعر من الحياة والموت فقد كان الشاعر يتحداه ويرفضه ويتمرّد عليه حين كان يكتب القصيدة المقاومة:

سقطت كلّ الاسانيدِ التی تزعمُ موتی
والذين إحترفوا القولَ بأنّ الموتَ أجدی
عندما فاجاتهم فی اللحظات اليائسة هرعوا فی عريهم
صوبَ نتوءِ البحر أو صوب نتوء اليابسة
ووحيداً تركونی
نازفاً فی عقرِ بيتی

(القاسم، ١٩٧٣: ١٤١ــ١٤٠)

فالشاعر يستخدم الموت رمزاً يوحی بالدلالة على ما كان يرمز له فی السابق فهو يتحدّث عن مرحلة عبرت من مراحل حياته التی عاشها وكأنّه راحل فی الموت، ولقد طغت عليه مشاعر القلق واليأس إزاء الموت فی المرحلة الراهنة فاقتصرت نبوءته على انتظار الموت الذاتی، ولم يعد يبنی واقعه الحلمی إلّا فی استحضار صورة الموت الذی يدهمه.

التناص الاسطوری للموت

تعبّر مدلولات الاسطورة فی الشعر العربی المعاصر غالباً عن قيمة انسانيّة مفتقدة، أو حلم مضطهد بالإضافة إلى كونها تكشف عن الحسّ الماساوی للّذات الشاعرة خلال التركيبيّة الدرامية للنص. من بين الأساطير التی وظّفها *سميح القاسم* أسطورة «تمّوز»،

فتمّوز هو أدونيس وعشتار هی أنانا وهی كلّها تشير إلى حكاية واحدة تجعل من عشتار ملكة السماء وتمّوز الابن الحق للحياة العميقة؛ وهما من آلهة الخصب والتجدد والانبعاث فی الطبيعة بكافة مظاهرها وأشكالها(موسى، ۲۰۱۰: ۳۲۸). حيث يقول:

لا خبزَ غيرَ وداعةِ الموات
وليكن الادامُ
وشلاً على الأحداق خلفَ الدمعةِ المتحجرةِ
ولكِ المجاعةُ والسلامُ
يا اسرتی المغلوبةَ المتكبّرةَ
القمحُ هذا العامَ منذورٌ لحربٍ
جلالةَ السطان
حَسب المومنين رضا جلالته وَعدَ بالذرة
ولجندِه لبنَ القطيعِ ولحمَه
ولخيلِه ذهبَ الخلايا الخير

(القاسم، ۱۹۹۰: ۳۵)

فهو يمزج بينَ الشخصية التاريخية وبين الرمز الاسطورى تمّوز المستمر فی الحضور منذُ بداية القصيدة حتّى نهايتها، وفی سياق دلالیّ يشير إلى القتل والموت كما يشير إلى عشتار بالإسم وحسب الأسطورة إنّ شقائق نعمان كانت نتيجة موت أدونيس حبيب عشتروت الابدى؛ حيث تحوّل دمه إلى زهرة جميلة عندما أخذت عشتروت كأساً من كوثر الآلهة وصبتها على دم أدونيس الجميل فغلى الدم وتحوّل دم أدونيس إلى زهرة الشقيق منذ ذلک اليوم صارت الوردة الحمراء رمز الحزن على أدونيس الجميل(البستانی، ۱۹۹۴: ۳۵).

التناص الدينی للموت

شكّل التناص الدينی مجالاً فسيحاً فی تجربة الشعر المعاصر؛ حيث عمد عدد كبير من الشعراء إلى استعادة النصوص والرموز الدينية فی سياق شعرهم المتنوّع من أجل خدمة أغراض فنيّة ودلاليّة تزيد النص الشعرى عمقاً وجماليّة.

وجد بعض الشعراء الفلسطينيّين المعاصرين فی الموروث الدينی ما يعينهم على تأكيد قضاياهم الفكرية وقيمهم الروحيّة، وبخاصة فيما يتعلّق بقضية الصراع العربی الصهيونی وتعميقها فی وعی المتلقی ومنحها بعداً شموليّاً لذلک استغلوا من الموروث الدينی المواقف الثوريّة التی وقفت فی وجه الظلم والقهر(البندارى ،٢٠٠٩، ١١: ٢٤٧).

واستخدم *سميح القاسم* القرائن الدينية معجماً وتركيباً لغاية فنية تجعل من مثل هذه الممارسة شكلاً قريباً ممّا يسمّيه البلاغيّون القدامى التضمين أو الاقتباس. و«يعدّ النص القرآنی مصدراً هاماً من مصادر التعبير الشعرى وتكثيف الدلالة وإثرائها بالرموز الخصبة؛ فقد تاثّر الشعراء الفلسطينيّون بأسلوب القرآن الكريم حيث استثمر هولاء الشعراء ثقافتهم الدينيّة بشتّى الطرق التی تناسب تجاربهم ورؤيتهم»(نبيل، ٢٠٠١: ١١٦)؛ فاستلهموا بعض المعانی القرآنية، ويستلهم *سميح القاسم* من النص القرآنی حيث يقول:

لام نون
وضراعةُ روحی وعمادی فی الحمأ المسنون
والكفنُ الطالعُ من جلدِی
والتابوتُ الطالعُ من جسدِ الزيتونِ
والاسلافُ الموتى الاحياءُ الموتى
والاحقادُ الآتون

(القاسم، ١٩٧٣: ٢١)

لقد استخدم *سميح القاسم* عبارة "الأحياء الموتى" صفة للأسلاف(العف، ٢٠٠٠: ٧٢)، وكأنّه إستلهم قوله تعالى:

﴿ولاتقولوالمن يُقتَلُ فی سبيل الله امواتٌ بل احياءٌ ولكن لاتشعرون﴾(البقرة/ ٤٥)

كما استخدم الشاعر هذا التعالق النصی الدينی من ثنايا معجم الموت(الكفن، التابوت، الروح، الجسد الموتى) حتى ينقل فضاء الموت إلى المتلقی.

التناص الصوفی للموت

وجد الشعراء المعاصرون مسلكاً فنياً وفكريا هاماً فی النصوص المتصوفة من ناحية، هذا وإنّ اللغة الشعرية الحديثة فی حدّ ذاتها شبيهة بلغة المتصوفة باعتبارها لغة منزاحة

معجماً وتركيباً؛ ومن ناحية أخرى وجد الشعراء العرب فی موقف المتصوفة من الموت ملاذاً وميداناً للإنتصار عليه واختزاله فی ما هو مادی وحسی لا يطول سوی الجسد، أو بالأحری أصبح الموت مطلباً تعبّر الذات من خلاله إلی خلودها حيث السعادة المطلقة، ففرحة المتصوف بالموت تطيح بتاريخٍ كاملٍ من الخوف عند البشر(زيعور،١٩٧٩: ١٨۴). وفی القصيدة التی يدعوها الشاعر خطاب من سوق البطالة وكان أحری به أن يدعوها "نشيد الصمود"يعلن العدو كراهيته وعصيانه له حيث يبلغ معنی الشهادة لديه ذروة الوعی ويطغی علی كلّ ما دونه فلا يحول بين الشاعر وبين الاستشهاد أیّ حائل وأیّ سبيل للإضطهاد، فقد يعزل من عمله ويحرم قوت يومه ويبيع متاعه ويعمل "حجارا وعتالا وكناس شوارع "وقد يجوع حتّی لياكل من روث المواشی دون أن يوهن ذلک كلّه من عزيمته ويغت فی عضد صموده، بل يقسم أن يقيم علی مقاومته حتّی آخر نبض من عروقه:

ربّما أفقد –ما شئت –معاشی
ربّما أعرض للبيع ثيابی وفراشی
ربّما أعمل حجاراً وعتالاً وكناسَ شوارع
ربّما أبحث فی روثِ المواشی عن حبوبِ
ربّما أخمدُ عرياناً وجائعُ
يا عدوَ الشمسِ لكن لن أُساومَ
وإلی آخرِ نبضٍ من عروقی ...
سأُقاومُ

(القاسم، ١٩٨٧: ۴۴٧)

وبعدُ فما هو معنی الشهادة؟ لم يكن تحملاً لأقسی أنواع الإضطهاد فی سبيل القصيدة؟ قد شكل الشهادة ذاتها بالموت، وإنّما يكون ذلک فی نهاية مطافها مع الظلم وقد يكون أشد قسوة منه إذ إنّها لا تعدو أن تكون موتاً يوميّاً. أولَيس فی تحمل فاجعة التشرد والوحدة والجوع شیء من معاناة الموت والتمرس بأجوائه والتدرب عليه؟ بلی إنّ فی تجربة الفقر والجوع شيئاً من مراودة الموت والألفة به والتجرع له ببط بلغة اثر بلغة؛ ولا غلو من بعدُ فی القول بأنّ تجربة سميح مع الشهادة والموت هی كتجربة الصوفی مع

الحقيقة و السعادة لأنّها فی تخلیه عن المعاش والفراش والخبز والعمل وتأمین العیش فی سبیل حیاته؛ إنّما کان کالصوفیّ الذی یتمرّس بتجربة التخلّی عن غوایة العالم الهائئ الساقط الفاقد المعنی لیمتلی من دونه معنی البطولة والحری(آفاق المعرفة، د.ت: ١۴٣).

نتیجة البحث

ومن خلال هذه الدراسة توصّلنا الی:

قد أثّرت المکوّنات الثقافیة والنفسیة والاجتماعیة والقومیة والوطنیة فی التشکیل الفنی لموضوعة الموت فی شعر *سمیح القاسم*، وهذا التشکیل یرسم حدود الشعریة عنده من خلال وعیه للماهیات المحیطة بالموت کحدث شمولیّ، وهنا تختلف النظرة إلی الموت اختلافاً کبیراً تبعاً لموقف صاحبها ومنطقه ودوافعه.

إنّ *سمیح القاسم* قد قدم ضمن نظرته الانسانیة نماذج من شعره تمتلئ معانیها انسانیة وتمتزج فیها قضایا النضال العالمیة امتزاجا کاملا. ویمکن أن نقول فی ذلک أن الشعر قدم لوحات الإنسان وتجاربه الثوریة النضالیة أینما وجد وکیفما ناضل. واعتبر بذلک رائدا انسانیا مقاتلا من أجل کرامة الإنسان وحریته مدافعا عن حق الإنسان کانسان فی البقاء ضمن انسانیة خیرة ولیست جائرة.

وإنّ *سمیح* لا یلجأ إلی التناص والاسطورة للهروب من الواقع بل هو إقبال علیها ومحاولة طرح قضایاه بصورة أعمق، وإنّه إستلهم التراث بمختلف أشکاله مستحضراً إیّاه وبثّ الروح فیه وحمله مدلولات جدیدة مکّنته من التعبیر عن همومه وهموم الشعب الفلسطینی والعربی، یعانی القهر والظلم وقسوة الإحتلال وهکذا إبتعد *سمیح القاسم* عن طرق موضوعة الموت بشکل مباشر لیتناولها "مرمّزة ".

وکلما تعقّدت سبل الحیاة نتیجة للصراع والإحتلال ولإیغال البشریة فی الحضارة تعدّدت مفاهیم الموت ومعانیه وألوانه، لذا إبتعد الشاعر عن أُسس التعریف الرئیس للموت الفیزیولوجی لیضع جدلیة فلسفیة عقلیة للموت وینزاح شیئاً فشیئاً عن المعنی الشمولی إلی المعنی الجزئی، إذ یضعنا الشاعر أمام مفهوماتٍ جدیدةٍ للموت.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أبوعلی، نبيل. ۲۰۰۱م، **فی نقد الأدب الفلسطينی**، ط۱، غزة: دار المقداد للطباعة.

إسماعيل، عزالدين. ۱۹۸۱م، **الشعر العربی المعاصر؛ قضاياه وظواهره الفنية المعنويّة**، ط۳، بيروت: دار العودة.

بزراوی، باسل محمد علی. ۲۰۰۸م، **سميح القاسم؛ دراسة نقديّة فی قصائده المحذوفة**، نابلس – فلسطين: لا نا.

البستانی، كرم. ۱۹۹۴م، **أساطير شرقيّة**، بيروت: دار نظير عبود.

خليل، بكری. ۲۰۰۴م، **الفكر القومی وقضايا التجدد الحضاری**، القاهرة: مكتبة مدبولی.

سبندر، ستيفن. ۲۰۰۱م، **الحياة والشاعر**، ترجمة محمد مصطفی بدوی، القاهرة: الهيئة المصرية للكتّاب.

سليمان، مسمح أيمن. ۲۰۰۷م، **الإتجاه الاجتماعی فی الشعر الفلسطينی بين الانتفاضتين**، غزة: الجامعة الاسلاميّة.

العف، عبدالخالق. ۲۰۰۰م، **التشكيل الجمالی فی الشعر الفلسطينی المعاصر**، فلسطين: وزارة الثقافة.

القاسم، سميح. ۱۹۸۷م، **ديوان سميح القاسم**، بيروت: دار العودة.

القاسم، سميح. ۲۰۰۴م، **الأعمال الكاملة**،كفر قرع: دار الهدی.

القاسم، سميح. ۲۰۰۰م، **كلمة الفقيد فی مهرجان تابينه**، عكا: مؤسسة الأسوار.

القيسی، نوری حمودی. لا تا، **شعر الحرب فی العصرالعباسی**، جامعة بغداد.

كامبل اليسوعی، روبروت. ۱۹۶۶م، **أعلام الأدب العربی المعاصر**، بيروت: مركز الدراسات للعالم العربی المعاصر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المقالات

متقی، امير مقدم. ۱۴۳۲ق، «**الشهادة والشهيد فی الشعر العربی المعاصر**»، آفاق الحضارة الاسلامية، آكاديمية العلوم الانسانيّة والدراسات الثقافية، السنة الرابعة، العدد الاول، صص ۸۵-۱۱۶.